مذهب الانسجام والتورية عند شرف الدين الانصارى

أ.م.د. رمضان رضائى (الكاتب المسؤول) أ.م.د. يدالله رفيعى
أكاديمية العلوم الإنسانية والدراسات الثقافية/ إيران
الباحثة. پرى ناز على اكبرى
مركز مواهب العالية للبنات في مراغه/ إيران

Coherence and Ambiguity School in Sharafaddin al-Ansari,s Poem

Ass. Prof. Dr. Ramazan Rezaei (Author responsible)
Ass. Prof. Dr. Yadollah Rafiei
Institute for Humanities and Cultural Studies\ Iran
Researcher. Parinaz Aliakbari
Brilliant girls talent center\ Iran
drr_rezaei@yahoo.com

Abstract:

Pun and an antithesis formed a literary school at 6th century(A.H) and there were many poets in this school. Then at the century (A.H) appeared some changes. In thes period they regarded Pun more than antithesis and there were many books and writings about this point. There were another school againt this school whose name was ambiguity and coherence school or Hilal magic school. In this field we can say about two trends. First one trend was formed by Ghazi Fazel in Egypt. But we should say that Ambiguity school was corrent in Fatemi era in the beginning of sth century (A.H). Second one trend which was established by Sharafaddin Ansari in Sham. He was the person who made easier ambiguity and becam the pioneer of Coherence and Ambiguity School and these poetic figures appeared on his poems. The aim if this research in the investigation of coherence and ambiguity school and showing the place of its former because Sharafaddin Ansari himself believed it and used coherence in base meaning and in poetic approach. There are a lot of poems in his Divan that ambiguity figures which are the base of his poetic school have been used in their poems many poets such as Shabbozzarif continued his method so in this research we investigate some Ansaris poems by using descriptive-analytical method.

Key words: Arabic poetry, Mamluki era, Coherence School, Ambiguity, Sharaf addin al-Ansari.

الملخص:

الجناس والطباق كانا في القرن السادس الهجري يؤلفان مذهباً فنياً، وسار كثير من الشعراء تحت لوائه، ثم تطور الأمر في القرن السابع الهجري، فأهمل الطباق بعض الإهمال واشتدت العناية بالجناس، وكثرت حوله المؤلفات، وكان يقابله مذهب آخر، هو مذهب التورية والانسجام، أو مذهب السحر الحلال، كما اصطلح على تسميته، ويمكن أن نتبين فيه اتجاهين، ظهر أولهما في مصر على يد القاضي الفاضل، مع أن التورية كانت شائعة قبله في العصر الفاطمي منذ أوائل القرن الخامس الهجري. وظهر الاتجاه الثاني في الشام على يد شرف الدين الأنصاري الذي طبع التورية بطابع الانسجام والسهولة، وأصبح رائد مذهب الانسجام والتورية وظهرت هذه الصنائع الشعرية في شعره فيهدف هذا البحث إلى دراسة مذهب الانسجام والتورية ومكانة رائده لأن الشاعر يؤمن به ويلتزمه في اضربه الثلاثة اي الانسجام في المبنى، والانسجام في المعنى، والانسجام في المنهج الشعري. ويلاحظ اكثار الشاعر من صنعة التورية وهي لباب مذهبه الشعري. نهج نهجه شعراء كثيرون من بعده، منهم الشاب الظريف. لهذا قمنا بتحليل نماذج من شعره عن طريق المنهج التوصيفي – التحليلي.

الكلمات الرئيسة: الشعر العربى، العصر المملوكى، مذهب الانسجام، التورية، شرف الدين الانصارى.

المقدمة

بعد سقوط الخلافة العباسية في بغداد على يد الغزاة المغول، أخذت تستقلّ الدول المتتابعة عن الخلافة العباسية. فظهر الفاطميون في المغرب ومصر والزنكيون في بلاد الشام وبعدهم مواليهم المماليك. و على عكس التصور الخاطىء الرائج، فإن ادب الدول المتتابعة والمماليك يمثّل طوراً هاماً فى تاريخ الادب العربي. فقد ظهر في ذلك العصر، علماء وادباء وشعراء لم تعطهم كتب الادب نصيبهم من الاهتمام والعناية. من أهم هولاء الشعراء، الامام العلامة الاديب الشاعر الشيخ شرف الدين الانصاري، الذي شقّ لنفسه طريقا خاصا وهاما في الادب وسلك منهجا فنيا فريدا عُرِفَ بمذهب "الانسجام والتورية" في الشام. تبعه فيه كثيرون من الشعراء بعده. هذا وقد ظهر قبله مذهب القاضي الفاضل في مصر. اهمية المذهب الشامي كمذهب اقتدى به شعراء عدة، دفعتني الى دراسته ودراسة حياة رائده الشيخ شرف الدين الذي ملآ ذكره الدنيا فى عصره واعجب كثيرون به وبعبقريته الشعرية. بناءً علي هذا، تُعدّ هذه أول دارسة من نوعها تتناول قضية الشهيد والشهادة في شعر المناصرة؛ حيث يقوم المقال بالإجابة عن هذين السؤالين: الاول الى أى مدى استخدام التورية والانسجام ساعد الشاعر فى التعبير عن تجربة الشعورية الى المتلقى؟ السوال الثانى أ أستخدام هذين الصنعتين ادت الى خلل فى فهم متلقى شعر الانصارى؟

يحاول هذا البحث بيان مذهب التورية والانسجام في شعر شرف الدين الانصاري مستعيناً بالمنهج الوصفي– التحليلي.

خلفية البحث:

قامت دراسات كثيرة بدراسة الانسجام بصفة أنه ذو اهمية كبيرة في دراسة النصوص ولأنه هوالترابط النصي ومنها: الإنسجام النصي وأدواته لطيب الغزالي مجلة المخبر العدد الثامن 2012 جامعة بسكرة في الجزائر، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق(الخطابة النبوية أنموذجاً) لصبحي ابراهيم فقي، الإنسجام في القرآن الكريم سورة النور أنموذجاً، أطروحة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه، جامعة الجزائر لطالبة نوال الخلف،2006– 2007،وكل هذه البحوث قامت بدراسة الانسجام علي اساس النظريات النصية الحديثة فما لها علاقه بالانسجام في البلاغة القديمة الذي نحن قمنا بدراسة في شعر شرف الدين الانصاري في هذا المقال. وأما في مجال دراسة شعر شرف الدين الأنصاري فما وجدنا إلا(درآمدي بر شعر شرف الدين انصاري) لا بو الحسن امين مقدسى فى نشرية الادب واللسانيات، رقم 160،1380 كلية الآداب والعلوم الانسانية، جامعة طهران. درس الكاتب فى هذه المقالة عدة موضوعات منها: اثر شعراء القديم فى شعر الانصارى كإمرئ القيس وكعب بن زهير والمتنبى وغيرهم وايضا درس التقليد والمصطلحات النحوية فيه وسائر موضوعات أخرى.

الإنسجام لغة:

ورد في "لسان العرب" تحت مادة(س ج م):« سجمت العين الدمع والسحابة الماء تسجمه وتسجمه سجماً وسجوماً وسجماناً وهو قطران الدمع وسيلانه قليلاً كان أو كثيراً... ودمع مسجوم سجمته العين سجماً وقد اسجمه وسجمه والسجم الدمع... وانسجم الماء والدمع فهو منسجم إذا انسجم أى انصب... سجم العين والدمع الماء يسجم سجوماً وسجاماً إذا سال وانسجم»(ابن منظور،1119،ج12، 280).

كما ورد في "قاموس المحيط ":«سجم الدمع سجوماَ وسجاماَ، ككتاب، وسجمته العين، والسحابة الماء تسجمه وتسجمه سجماَ وسجماناَ، قطر دمعها وسال قليلاَ أو كثيراَ»(فيروز آبادي،110،1999–111). فمن خلال هذا التقصي للمعاني المتعلقة بمادة(س ج م) نجد انها تدور حول القطران والصب والسيلان، وهذه المفردات توحي بالتتالي والتتابع والانتظام وعدم الانقطاع في الانحدار، وإذا ما ربطنا هذه المعاني بالكلام نجد الانسجام هو أنْ« يأتي الكلام متحدرا كتحدر الماء المنسجم» (المصري،429،1963).

الانسجام اصطلاحاً:

الانسجام هو الترابط النصي يعني العلاقات التي تربط معاني الجمل في النص، هذه الروابط تعتمد علي المتحدثين "السياق المحيط بهم"(الفقي،2006،ج 1،94)، فهو إذن يتصل برصد وسائل الاستمرار الدلالي في عالم النص أو العمل علي إيجاد الترابط النصي(عفيفي،1999،90)،أي أنه يهتم بالروابط الدلالية المتحققة في عالم النص.

المذهب المصري والمذهب الشامي في الشعر:

ظهر في الشام في العصر الايوبي مذهب فني معين فى تصنعه البديعي وكان هذا الاتجاه الجديد يسير جنبا الى جنب مع الاتجاه الذي بدت تباشيره قبيل ذلك في مصر على يد القاضي الفاضل وجماعته من بعده. اما المذهب الجديد فى الشام فكان الشيخ شرف الدين الانصاري رائده الاول وعرف بين تابعيه بالمذهب الانصاري، ونهج معظم الشعراء النصف الثاني من القرن السابع نهجَهُ واقتدوا به واستمدوا منه كثيرا من معانيهم الشعرية. وقد اطلق على هذا المذهب الشعري تسمية " مذهب الانسجام والتورية"

وقد اشار ابن حجة الحموي في خزانته الى الفرقتين اللتين اعتنقتا هذين المذهبين فى مصر والشام على السواء فقال وهو يرد نماذجَ من التورية:" انتهى ما تخيرته ووعدت بايراده فى باب التورية من كلام هذه العصابة التى مشت تحت العصائب الفاضلية، وصار لها من بعده فى نظم التورية اعظم روية، وقدمت امامهم الذى صلّت الجماعة خلفه وهو القاضي الفاضل وبعده القاضي سعيد بن سنا الملك والشيخ السراج الدين الوراق وابوالحسين الجزار ونصير الدين الحمامي وناصر الدين بن حسين بن النقيب والحكيم شمس الدين بن دانيال والقاضي محيي الدين بن عبد الظاهر وهذه الفرقة التى تقدمت بعد الفاضل بالديار المصرية واما الفرقة الشامية فامام جماعتها الشيخ شرف الدين عبد العزيز الانصاري شيخ شيوخ حماة وبعده مجيرالدين بن تميم وبدر الدين يوسف بن لؤلؤ الذهبي ومحيي الدين بن قرناص الحموي وشمس الدين بن عفيف وسيف الدين بن المشد.

ونحن في هذا المقال بصدد دراسة مذهب التورية والانسجام ورائده لكن جدير بنا أن نعطي للقارىء نبذه عن القاضي الفاضل ومذهبه لكي نستطيع فهم وجه التمايز بينه وبين المذهب الشامي.

ولد الوزير مجير الدين عبد الرحيم البيسانى المعروف بالقاضي الفاضل بمدينة عسقلان في فلسطين سنة 529 هـ. وبعد سقوط الدولة الفاطمية، وزر لصلاح الدين الايوبى واصبح كاتبه ومشيره وقد قال صلاح الدين عنه:" لا تظنوا ملكتُ البلاد بسيوفكم بل بقلم الفاضل " وقد توفي سنة 596 هـ. له ديوانٌ ومجموعةُ رسائل وكانت له طريقةٌ خاصةٌ سميت "بالطريقة الفاضلية" وكانت تقوم طريقته على: 1. التصوير التشخيصي 2. الايغال في الجناس والطابق والتورية 3. الاكثار من حل المنظوم والتضمين 4. الاطناب.(الفاخوري، 1377، 719 و720). اما في الشعر كان يعنى بالبديع عناية فائقة وخاصة التورية. وكثرت الزخارف اللفظية والمحسنات البديعية المقيتة في شعره وفي شعر من انتهج نهجه وقد سُميَ مذهبه" مذهب البديع". قال ابن حجة عنه: وقيل ان الفاضل هو الذي عصر سلافة التورية لاهل عصره، وتقدم على المتقدين بما اودع منها في نظمه ونثره، فانه رحمه الله تعالى كشف بعد طول التحجب ستر حجابها، وانزل الناس بعد تمهيدها بساحتها ورحابها (الحموى، د.ت، 241) اوغل الفاضل في استخدام التورية وعدت السمة البارزة في مذهبه الفني.

وقبل دراسة مذهب التورية والانسجام الشامي، حريٌ أن نعرف رائده وزعيمه الاول شرف الادين الانصارى.

نبذة عن حيات الشاعر:

فى دمشق الفيحاء وفى درب الكشك، احد أحيائها القديمة، ولد الشاعر الكبير، شيخ شيوخ حماة ورئيسها الصاحب شرف الدين.هو ابو محمد، عبدالعزيز، بن عبدالمحسن بن محمد الدمشقى المعروف بـ (ابن الرفاء)، سنة 586 هـ. وهو من قبيلة أوس الأنصارية (باشا،1999، 99و100) التي كانت تسكن كفرطاب (بلدةٌ بين المعرّة ومدينة عسقلان في برية مَعطشة ليس لهم شربٌ الا ما يجمعونه من مياه الامطار فى الصهاريج. (الحموي،د.ت،470) وقد أشارالى نسبه فى شعره بقوله:

واذا ما الأوس عدوا فانى من ذوبهم فى لباب اللباب.(الانصارى، الديوان،84،1968)

ان كنت لم أفتقد غمضى لفقدكم فلاوجدت من الأنصار أنصارى (نفس المصدر،210،1968)

كان ابوه من فقهاء دمشق، سكن حماة وتولى قضائها لعهد صاحبها المنصور الإول (ضيف، 280،1119) وكان مطبوعا على نظم الشعروقد حاول أن يدرب ابنه عليه منذ نعومة اظفاره وكان شرف الدين معجباً بابيه وقد أشارالى جلالة قدره فى معرض قوله يفتخر به، ويتحدث عن قومه الأنصار الذين بايعوا الرسول (ص) تحت الشجرة (باشا،101،1999):

نفرٌ كالحمر المستنفره أجفلت هاربة من قسوره

طلبوا شأوى ولما يلحقوا بعد لاى من غبارى أثره

من يسالمنى أسالمه ومن رام حربى فاليه المعذره

وابى من قدعلمتم قدره مجهرّبالخطبة المسحنفره

من يشاجره يصادف قومه جلَّ من بايع تحت الشجرة(نفس المصدر،223،1968)

رحل به والده، وأسمعه "جزء ابن عرفه" من ابن كليب، وسمعّه "المسند" كله من عبيدالله بن أبى المجد الحربى، وقد قرأ كثيرا من كتب الأدب على الكندى (ابن شاكر، 685،2000). زار بغداد وسمع فيها من مشاهير علمائها ومحدثيها، وعاد الى بلاد الشام، وأثرعنه أنه حدّث بدمشق وحماة والقاهرة، وانتهى به المطاف الى بعلبك وتخرج على يده تلامذةٌ كثيرون منهم تلميذه ابن موفق البعلبكى (باشا، 103،1999) وسكن حماة وكان صدراً كبيرًاً نبيلاً معظماً وافرَ الحرمة كبير القدر روى عنه: الدمياطي، اليونيني، وابن الظاهري، وقاضي القضاة، بدرالدين بن جماعة وجماعة كثيرة، وكان من الأذكياء المعدودين(ابن شاكر،686،2000) وكما يذكر الدكتور عمر موسى باشا فان حياة الشاعر مرّت بهدوء وسلام فأحبه الناس واصطفاه الملوك لأنفسهم. وشملت حياته شطرين من تاريخ الأيوبيين والمماليك على السواء. وقد توفى سنة662هـ.و دفن فى حماة(باشا،1999، 109)

ولقد كان من قَدَر الشاعر شرف الدين الانصارى أن يجرّ عليه النسيان ذيله وأن يظل منسيا فى كتب الادب والشعر زمنا طويلا وأن لايتردد اسمه على الألسنة كما ترددت اسماء شعراء فى الشام ومصر والعراق كانوا اقل منه مكانة فى الشعر واقل منه شهرة وسيرورة فى عصره واقل منه مقدرة على الابتكار والتجديد وتوليد المعانى الأُنُفِ التى لم تسبقه الى اختراعها سابق. فقد كان الرجل بالاضافة الى شاعريته المتأصلة صائغا حسن الصياغة، جيد السبك وطلى العبارة مما جعل ابن حجة الحموى يفتن بطريقة الصاحب شرف الدين ومذهبه ويغالى فى تقديره والثناء عليه لانسجام الكلام عنده كانسجام الماء فى انحداره ولأنه يكاد لسهولة تركيبه وعذوبة الفاظه يسيل رقة. وقد أسمى ابن حجة الحموى مذهب الانصارى ومن سار على دربه مذهب الانسجام وجعله من فنون البديع المبتكر.

أشار الأقدمون إلى وجود ديوان له ذكر ابن حجه الحموي انه اختار منه زاويةً، أتحف بها خزانة (الحموى، د.ت،256) ويذكر ابن شاكر نقلاً عن صلاح الدين الصفدى ان له فى "لزوم ما يلزم"مجلدٌ كبيرٌ(ابن شاكر،286،2000) وله مولفات اخرى منها: "نظرة المعشوق الى وجه المشوق" (حاجي خليفة،1999، ج2،763) و"تذكار الواجد بأخبار الوالد" وهي منظومةٌ ذكر فيها والده ورحلته (نفس المصدر،1999،ج4،470).

اغراض شعره:

اما اغراضُ شعرهِ فتنقسم إلى اربعة اغراض رئيسية: المدح، الغزل، الزهديات، المطارحات والإلغاز. فى ديوان الشاعر قصائد نبوية متعددة وقد صنفه شوقي ضيف في عداد شعراء الزهد والمدائح النبوية في قوله: " وطبيعيّ والانصاري شيخ الشيوخ الفقيه المحدث أن يعنى في الشعر بالمديح النبوي والزهد والوعظ "(ضيف، المصدر السابق، 281) وقد مدح الملوك الايوبيين الذين عاصره وفى مدحه بديعيات؛ ثم انه يُدخل فى مديحه للملوك والامراء كثيرا من احداث التاريخ وخصوصا ذكر انتصار المسلمين على التتر،فهو بذلك يعرض لنا جانبا من صورة العصر الذى شهده.(فروخ، 600،1997) ومع ان الشاعر زانه الوقار طيلة حياته لكنه لم يمنعه من التغزل فللشاعر مقطوعاتٌ وقصائدُ كثيرة في الغزل والنسيب ويمتاز بالرقة المتناهيه والجمال والانسجام. لكن خوفه من الله دفعه الى نظم الزهديات طمعاً بالعفو والغفران عما قاله في غزلياته الرقيقة.

وبما اننا في هذا المقال بصدد تبيين مذهب الشاعر الفني ومكانته كرائد كبير لشعراء عصره في مذهب التورية والانسجام، لذا يجب أن ندرس شعره ومن خلاله نصل الى غايتنا. لكن هذه الغاية لا تتأتى الّا بعد الاجابة على سؤال اساسي هو لبُّ دراستنا الا وهو: ما مذهب التورية والانسجام؟

قد لاحظ ابن حجة مذهب الشاعر الفني واشار اليه في معرض حديثه عن الانسجام وقال: " المراد من الانسجام أن يأتي لخلوه من العقادة كانسجام الماء في انحداره ويكاد لسهولة تركيبه وعذوبة الفاظه ان يسيل رقة ولعمري ان طيور القلوب ما برحت على أفنان هذا النوع واقعة وبمحاسنه الغضة بين الاوراق بدور مطالعه ساجعة واهل الطريق الغرامية هم بدور مطالعه وسكان مرابعه، فانهم ما اثقلوا كاهل سهولته بنوع من انواع البديع اللهم الا ان يأتي عفواًمن غير قصد وعلى هذا اجمع علماء البديع في حدّ هذا النوع فانهم قرروا ان يكون بعيداً من التصنع خالياً من الانواع البديعية الّا ان ياتي في ضمن السهولة من غير قصد وغالب شعر الشيخ شرف الدين عبد العزيز الانصاري، ماش على هذا التقرير. (الحموي، المصدر السابق،190)

وبهذا التقرير قد تعرفنا على مفهوم الانسجام، اما التورية" يقال لها الايهام والتوجيه والتخيير، والتورية اولى في التسمية لقربها من مطابقة المسمى لانها مصدر وريتُ الخبرَ توريةً اذاسترتهُ واظهرتَ غيره وفي الاصلاح ان يذكرَ المتكلم لفظاً مفرداً له معنيان احدهما قريب ودلالة اللفظ عليه ظاهرة والآخر بعيد ودلالة اللفظ عليه خفية فيريد المتكلم المعنى البعيد"(نفس المصدر،239).

ويمكن ان نوضح هذا المذهب الشعري في ثلاثة اضرب:

اولها: الانسجام في المبنى وهو يتضح في حسن اختيار الحروف، والالفاظ، والتراكيب والصيغ البلاغية.

ثانيها: الانسجام في المعنى، وهويتضح في حسن اختياره مطبوعاً بالطابع الذاتي، وموضحاً بالصور البديعية، ويعطيه رمزاً جمالياً، لايدرك الّا بحسن تدبر البيت وإعمال العقل فيه، بالإضافة الى تموج العاطفة المتأججة.

ثالثها: الانسجام في المنهج الشعري، وهو يتضح من خلال ثلاثة مظاهر:

1. الالتزام فى الاوزان والقوافى، وحسن اختيار الروىَّ فيها.
2. الالتزام فى الجمع بين غرضين متباينين، وهما الغزل والزهد وما يتعلق بهما وجديرٌ بالذكر ان هذا الجمع ظاهرةٌ بارزةٌ فى هذا العصر.
3. استخدام التورية العامة فى معرض الانسجام، بالاضافة الى استخدام التورية الخاصة التى كانت ملتزمة فى الاصطلاحات فى الفنية عنده.(باشا، المصدر السابق،132)

و سندرس ابياتاً من شعره لنوضح كلاً من هذه الاضرب الثلاثة:

1.الانسجام فى المبنى:

الشاعر كان يجيد استخدام الحروف والالفاظ التى تناسب كل غرض من شعره فهو مثلاً استخدم قصائد قافية الخاء كلها فى باب الزهديات لان الزهد عكس الغزل لايحتاج الى الرقة فى الروىِّ وحرف الخاء بسبب عدم استساغته وموسيقاه الثقيلة ينسجم مع التقشف الموجود فى الزهد. (أبو الوفاء، 2003م: 198) مثلاً:

المجدُ مشدودُ الأواخى فانهض له ودع التراخى

لا تشغلنّ عن الترحُّل بالسكون الى المناخ

وترحّ من عرَض الدُّنا بالقُرص والماء النقاخ (نفس المصدر،145)

ونرى حسن اختياره الحروف والكلمات والأبيات التي تثيرُ الجرس الشعري العذب في قصيدته الجملية هذه:

رفقاً بروحي فهى لك وعلى السخي بما ملك

افضل بحق من اصطفاك على الملاحِ وفضّلك

وكأن ربُّك فى الجمال على افتراحي مثّلك

احظاك فيه بمنصبٍ سوّاك فيه وعدّلك
مَن فرّمِن ذُلِّ السؤال فعزتى ان أسالك
ان تحم طرفى ان يراك جعلت قلبى منزلك
انى اغار اذا الأراك دنا اليك فقبّلك
ويروعنى واشى النسيم اذا ثناك وميّلك
ما اقبح الصبر الجميل بعاشقيك واجملك(نفس المصدر378)

الانسجام فى المعنى:

ونلاحظ تجلي الضرب الثاني في القصيدة السابقة فهى تموج بالعاطفة المتاججة وتنبض بالشعور الفياض ونلمحُ فيها مظاهَر الانسجام بين اللفظ والمعنى ونرى الطباق بين" الذل والعزّة "و"اقبح والجميل "قد كساها رمزاً جمالياً وزاد من جذابيتها، وتشخيص" واشى النسيم" اعطاها حياة وتدفقاً وفى هذه القصيدة بلغَ ذروةَ نضجهِ الفني المشفوع بالذاتيه والطبع السليم.

وجمعت قصيدته التى نظمها على وزن قصيدة القاضى الفاضل وعارضه بها بين سحر المعاني وجمال الاسلوب يقول فيها:

لعينى كلَ يومٍ منه عبره تصيّرنى لأهل العشق عبره
فعسجد جفنها لانقصَ فيه وكم جهزتُ منه جيش عسره
اذا غفل الوشاةُ اسلتُ دمعي فيغدو مُرسلاً في وقت فتره
علامةُ شقوتى في الحب اني ثقلتُ عليك لاعن طولِ عشره
فوترُ الوصل لم يشفع بثان وهجرك مرةً فى إثر مره
وجفنك اكحلٌ من غير كحل وخدُّك احمرٌ من غير حمره
وصبري فيك ليس له وجودٌ ووجدي منك لا احصيه كثره(نفس المصدر236)

وفي مكان أخر يقول:

سالزم بابَ خمّار الثنايا ليطلقَ لي ولو فى العمرِ سكره
وقدماً كنت مستوراً الى ان لبستُ من الخلاعه ثوبَ شهره
اطعتُ غوايتى وعصيتُ رشد المناصح كرة من بعد كره
ما تنقى من الادناس نفسي ولو غسلت بصابون المعرّه
وأعجب حادثاتِ الدهر اني احاول طاعة فتعودُ حسره
وأطمع فى خلاصي يومَ بعثي وما اخلصتُ فى مثقال ذرّه(نفس المصدر237)

اما فى المعاني نراه يتحدث عن العبرات والوصول والهجران وخلص الى التحدث عن ضلاله فى هواه ولزومه باب خمار الثنايا وفى الاسلوب جمع من التوريه والانسجام اوفر نصيب وطبعه بطابعه الخاص ورمز فى اسلوب التورية الى جيش العسره والمرسل فى غير فتره وباب خمار الثنايا وصابون معرّة.

الانسجام فى المنهج الشعرى:

ويظهر لنا هذا الضرب بمظاهره الثلاثة فى شعر شرف الدين ظهوراً واضحاً ويتجلى فى غرامياته وغزلياته لأن الشاعر قد اعتنق مذهب الانسجام وتجلت عبقريته فى هيكل القصيدة العامة فقد كان يحاول دوما ان يختار لها البحر المجزوء والقافية الراقصة التى تثير فى القصيدة جرساً ناعماً وكان يختار القوافى المستساغة التى تلائم غرضه الشعرى وتولد فى النفس الإرتياح. مثلا فى قصيدته التى رثا بها جاريته التى كان يحبها واختتمت قصتُهم بغرقها فى نهر العاصى:

وجاريةٌ مذ تعلقتها نبذتُ اليها جميعَ العلق

تملكتها فاعترانى لها غرامٌ تملكنى فاسترق
وقد كنت أغرق فى حبِّها وما كنت أخشى عليها الغرق
وكنت أخاف عليها العيون فقد حقق النهر ذلك الفرق(نفس المصدر، 374)

وقد تجلت عبقرية الشاعر فى اختيار الأوزان والقوافى التى سار بها بخطاه الحثيثة نحو الانسجام فى قصيدته التى أسلفنا ذكرها وهى:

رفقا بروحى فهى لك وعلى السخى بما ملك (الخ) (نفس المصدر،378)

ومن مظاهر الانسجام الجمع بين غرضين متباينين وقد كثر هذا الجمع فى هذه العصور وجمع شاعرنا بين الغزل والزهد فى عدة قصائد باسلوب رشيق على سبيل المثال نذكر قصيدته فى جاريةٍ له:

أوقعنى في قيد أسر الهوى جاريةٌ أوصافها جامعه
ثالثة البدرين فى حسنها مع انها في نسكها رابعة
كم جننت قلبي في حبها فليتها كانت له تابعه
وكم وشت بى وبها عصبةٌ كاذبةٌ خافضةٌ رافعه
لو كنت فى الصف إلاقى العدا ما وقعت بى هذه الواقعة
يا رب غفرا عن ذنوبى فى نفس على أهوائها نازعه
إن ضيّقَ الدهرُ خناقى فما تضيق بى رحمتُك الواسعه(نفس المصدر،312)

وهنا نلاحظ براعة الشاعر فى الانتقال من الغزال الى الزهد بخفة وانسجام وقد أفلح الشاعر فى الجمع بين الغزل والزهد فى قصيدة اخرى مع ان الغرضين متابينين لكن مهارة الشاعر تمهد له السبيل هى القصيدة التى يستهلها بقوله:

ألمَّ، وجُنحُ الليل من صُدغه مُرخى خيالٌ بخيلٍ، ما أبرَّ، وماأسخى(نفس المصدر،143)

وتابع غزله بتصوير ما فى قبله من الأسى وما يقاسيه في ليله من الألم وخلص من وصف اليل المسهد الى الزهد قائلا:

فمل،ايها القلب الجهول،عن الهوى ولا تَملَخَن فى نيلِ باطلهِ مَلخا
وأقبل على التقوى،و أعرض عن الخنا لتتضحَ أوضارَ الذنوب بها نضحا
ولا تقرب الدنيا لغير ضرورةٍ تُسوّغُ للعصفور أن يلجَ الفخا (نفس المصدر، 144)

وتابع بالقول التالي:

ولا تأمَنَن فوتَ الوفاةِ لحالةٍ فلا قشعماً تُبقي شعوبٌ ولافَرخا
وإن امرأً أودى ابوهُ وولدهُ سيذهبهُ ما اذهبَ الفرعَ والسِّنخا (نفس المصدر،145)

وهو في هذه القصيدة بعد الغزل التمهيدي ينصح قلبه ويخاطب نفسه، لكيلا يغتر بالحياة الدنيا ويتخلص بعد ذلك ليختم هذه الصور الزهدية بحكمة خالدة في مصير الحياة الانسانية. وقد اختار لها البحر الطويل لان هذا البحر انسب لها في التعبير عن معان اراد ان يبرزها في قصيدته.

اكثر الشاعر من صنعة التورية في شعره، وهى لباب مذهبه الفني، فهو رائد المذهب الرمزي في الادب العربي خلال هذا العصر في بلاد الشام. نذكر من ذلك قوله في جاريته مارية:

أوقعني في قيد اسر الهوى جاريةٌ اوصافها جامعه
ثالثة البدرين في حسنها مع انها في نسكها رابعه(نفس المصدر،312)

التورية في رابعة العدوية، المتصوفة الناسكة واختيار اسم هذه المتصوفة والتورية بها ينسجم مع ختام القصيدة في نداء الله.

وقد اورد ابن حجة في خزانته نماذجَ من تورياته (الحموي، المصدر السابق،256و257) منها:

افدي حبيباً رزقتُ منه عطفَ محبٍّ على حبيبٍ
بوجنةٍ ما اتمَّ ربحي وقد عدا وَردُها نصيبي(نفس المصدر،83)
التورية فى وردها، معناها القريب الزهرة ومعناها البعيد حمرة خد المحبوب. ومنه قوله:
لا تنسَ وجدي بك يا شادناً بحُبِّه أُنسيتُ احبابي
مالي على هجرك من طاقةٍ فهل الى وصلك من بابِ(نفس المصدر، 88)
التورية فى شادن، معناه القريب الغزال الصغير ومعناه البعيد المحبوب الجميل كالغزال. وقوله:
مرضتُ، ولي جيرةٌ كلُّهم عن الرُّشدِ في صُحبتي حائدُ
فاصبحت في النقص مثلُ "الذي" ولا صلةٌ لي، ولا عائدُ(نفس المصدر،169)
ورّى بصلة وعائد، معناهما الاصلاحات النحوية المتناسبة مع الذى ومعناهما البعيد العطاء والزائر
وقال:
قالوا لنا: في جلَّقٍ نزهةٌ تُنسيك مَن انت به مُغرَى
يا عاذلي، دونك مِن لحظِهِ سهماً، ومن عارضهِ سطرا (نفس المصدر، 240)

فجلق مدينة بدمشق، والسهم والسطر موضعان من منتزهاتها، وهذا المعنى البعيد ومعناهما القريب سهم النظر، وسطر العارض، وهو جانب الخد. وايضا يقول:

وقتلُ العمدِ قد قَتَلَتهُ علماً وما وَصَلَت الى بابِ الإجاره(نفس المصدر،201)

والاجارة من أجر يأجر وهو ما يعطى في العمل، وباب الاجارة احد ابواب المعروفة في الفقه يسبق القتل.

والتورية منتشرة في شعره كل الانتشار ويلاحظ ان الشاعر حاول ان يوسع مدى التصنع البديعي فى باب التورية فكان يحاول ان يوري بغير الالفاظ، وذلك عن طريق عبثه اللفظي اما بالكلمات او الحروف منها قوله يعبث بلفظة (شرخ):

وقد خانني شرخُ الشباب وراعني مشيبٌ وحالي منه شرخٌ بلا خاء (نفس المصدر،50)

وقوله يعبث باسم ممدوحه (يوسف) الملك الناصر:

يُسُّمى فَيُعزى كلُ مجدٍ وسؤددٍ الى يائه والواو والسين والفاء (نفس المصدر،52)

وقوله يعبث بلفظتى (الحب) و(الحس):

فلو اصبحتَ ذا حاءٍ وسينٍ لما عنّفتَ في حاءٍ وباءٍ (نفس المصدر،55)

وكان يستخدم التورية بالاصطلاحات النحوية كالرفع والنصب والمجرور والمرفوع والفاعل وغيرها ويقول:

اذا فاعلٌ رام ارتفاعاً بفعلهِ ففعلُك مرفوعٌ بانك فاعلُه (نفس المصدر،404)

وقوله:

رفعتَ ذوي الاعراب من بعد خفضهم فاثنى عليك الرفعُ والنصبُ والجرُّ (نفس المصدر،228)

واضافة الى هذا كان يحاول استخدام بعض المصطلحات العروضية:

وبحرٌ طويلُ الباعِ منسرحُ الندى بسيطُ المعاني وافرُ الفضلِ كاملُه (نفس المصدر،405)

والمصطلحات البديعية:

ووشت بى الانواء بردَ رياضه بغرائب التوشيعِ والتفويفِ (نفس المصدر،331)

وكان من ميزات الشعر المملوكى استعمال الآيات القرآنية بصورة مباشرة. يتموج الاقتباس من القرآن الكريم فى ديوان شرف الدين وكان الشاعر يعتمد في تحقيق الانسجام على الرمز بالقرآن والاقتباس منه. كقوله:

ولاتَسحرنّي بالملامِ، فإنما غرامي عصا موسى،اذا عنّ ساحرُ؟(نفس المصدر،214)

اشار الى قوله تعالى"فألقى موسى عصاه، فإذا هي تلقف مايأفكون، فألقى السحرة الساجدين" (الشعراء/45و46)

وقوله:

يانظرة ماجلت لي حسن طلعته حتى انقضت وأدامتني على وجلي

عاتبتُ انسان عيني في تسرُّعه فقال لي:"خُلِقَ الانسان من عَجَلٍ" (نفس المصدر،400)

وقد اقتبس الشاعر قوله تعالى:"خلق الانسان من عجل، ساريكم آياتي فلاتستعجلون" (انبياء/38)

وايضا قوله:

"بُعداً لِمدينَ " مثلما من قبلها " بَعِدَت ثمودُ " (نفس المصدر،171)

اقتبس قوله تعالى:... كأن لم يغنوا فيها،الا بعداً لمدين كما بَعُدَت ثمودُ" (هود/96)

ومنه:

وقلت لعذّالي: ألم تعرفوا الهوى؟ لقد جئتم شيئاً بعذلكم نُكرا (نفس المصدر،197)

وكان ممن يجيدُ حُسن التخلص من غرض الى آخر:

وهتك السترِ صبرُ الصبّ عنها اذا غنّتهُ من خلفِ السِّتاره

اذا استسقى بريقتها نديمٌ ازالت خَمرُها عنه خُمارَه

ويفتك طرفُها فيقولُ قلبي: أشنَّ، تُرى صلاح الدين غارَه

التخلص

وهنا نراه يتخلصُ من النسيب ليدخلَ في المدح بمنتهى الرشاقة واللباقة. (نفس المصدر،202) ويذكر لنا ابن حجة الحموي في حديثه عن الانسجام ان الشيخ شرف الدين، هو غيثُ هذا الانسجام وغريم هذا الغرام ثم يوردُ ابياتٍ تدلُّ على مذهبه في الانسجام (الحموي، المصدرالسابق،200و201) منها:

حديثي في المحبةِ ليس يُشرَح فدعني من حديث اللّوم واسرح

فما لك مطمَعٌ ببراح قلبي عن الحبِّ الذي أعيا وبَرّح

فكم من لائمٍ أنحى الى ان تأمَّلَ من هويتُ، فما تنحنح (نفس المصدر،132)

فيا للهِ ! ما أشهى وأبهى ! ويا للهِ ! ما أحلى وأملح

له طرفٌ، يقول:الحربُ أولى ولي قلبٌ، يقول: الصلحُ أصلح(نفس المصدر،133)

ومثله قوله:

صبٌّ أخذ الهوى زِمامه قد صار جمالكم إمامه

في حسنكمُ البديعِ شغلٌ عن علوةَ لي وعن أُمامه

مَن لي بِمُحَبَّبٍ أراهُ بالفكر، ولا أرى خيامه(نفس المصدر،449)

أشدو بتغزُّلي لديهِ فيهِ فيُجِدُّ لي خِصامه

يُزهى، و يقولُ: كان ماذا لو يَتْرُك جاهلٌ كلامَه

والغصنُ حسبتُهُ شبيهاً منِّي بِتعطّفٍ وقامة(نفس المصدر،449)

ويتضحُ لنا مما أسلفنا مفهوم مذهب الانسجام والتورية. فقد كثرت التورية في شعر شرف الدين، واستطاع بمهارته الفائقة ان يجعلها مستساغة حيث لاتتعارض مع انسجامه الشعري. وكان يلتزم استخدام القوافي القصيرة أو المجزوءة التي تلائم أغراضه ومعانيه. فطبعت قصائده بطابع السهولة والرقة وجمال التركيب وتناغم الوزن والموسيقى العذبة. فكان يسير الشاعرُ بخطاه الحثيثة نحو الانسجام وقد اشار الى هذه الصفة من خلال قوله:

واسمع بديعَ نطيمٍ لايساجلهُ جزلٌ من المدح في سهلٍ من الغزل(نفس المصدر،403)

ورأينا براعته في حسن التخلص وفي الاقتباس من القرآن وغيرها من انواع البديع الذي لم يَسَع لنا الاستشهاد بها من: جناس، وعكس، ومقابلة و...

ولاحظنا قمة ابداعه في التنقل من الغزل الى الزهد وهما غرضان متباينان وهذا دليلٌ على قوة الشاعر وتمكنه مما مهد له هذا الطريق. ومن هذا كله وصلنا الى مفهوم " مذهب الانسجام والتورية " الذي يجمع بين التورية التي ظهرت كمذهب فنيٍ على يد القاضي الفاضل مسبقاً في مصر وبين الانسجام الذي جاء به الشيخ شرف الدين الانصاري. وهنا تتضح لنا أهمية الشاعر في عصره، فكان الشاعر بحق من الشعراء البارزين في ذلك العصر وله مكانة مرموقة بين الاعلام من شعراء الشام. فاصبح ذا مذهبٍ أدبي هام إقتفى أثره العديد من شعراء الشام فيما بعد. أختم كلامي بإيراد قول ابن حجة:" وجاء من شعراء الشام جماعة تأخر عصرهم وتأزّر نصرهم، ولان في هذا النوع هصرهم، و بعد حصرهم، كل ناظمٍ تود الشعرى لو كانت له شعراً، و يتمنى الصبح لو كان له طرساً، والغسق مداداً، والنثرة نثراً. كالشيخ شرف الدين عبد العزيز الانصاري و..."(الحموي، المصدر السابق،241)

نتائج البحث:

كان شرف الدين الأنصارى شاعراً بارزاً عالماً في عصره، مقرباً من الملوك الإيوبيين ومحبّباً لدى الناس. استطاع بعبقريته الفذة وطبعه السليم ونهجه القويم، أن يوطِّدَ لنفسه اركانَ مذهبٍ فنيٍ خاص، طُبعَ عليه اسمهُ وسلكه شعراء كثيرون فيما بعد، منهم الشاب الظريف. استخدم ببراعة ولباقة الرمز بالتورية ونثرها في جميع شعره وجعلها لباب مذهبه والتزم في العديد من قصائده الفنون البديعية المعنوية واللفظية كاالمقابلة، والطباق، والجناس، وحسن التخلص، فنراه يتخلص بسهولة ويُسرمن غرض الى آخر. ادخل الاصطلاحات النحوية والعروضية وغيرها في شعره لتغدو معانيه متميّزة، وضمّن من آيات القرآن فأصبحت أبياته عذبة الوقع في النفس. كان الشاعر يُجيدُ اختيار القافية والروى المستساغ، فيأتى شعره بجرسٍ موسيقيٍ عذب منسجم. وفى طيات ديوانه نراه يتمادى في غزله ونسيبه وقد طغت العاطفة عليه لكنه سرعان ما يصحو من غلواء سكره ويعود الى جلالة قدره فيطلب العفو ويبدع في شعره الزهدي، وهكذا يجمع في قصيدة واحدة غرضين متباينين من غزل وزهد دون مشقة صعوبة. تمكن الشاعر بمهارته الفنيه ان يبعد الشعر عن اساليب الصنعة التي طغت عليه وان ياتى بشعر خال من التكلف الذميم والتعقيد والاغراب. وهكذا نرى الشاعر قد استحق وبجدارة لقب رائد مذهب شعرى كبير في بلاد الشام، هو مذهب التورية والانسجام.

المراجع والمصادر:

- القرآن الكريم.
- أبوالوفاء، على الله بن على، 2003م، القول السديد فى علم التجويد (برواية حفص عن عاصم)، بيروت: دار ابن حزم.
- أمين مقدسى، ابوالحسن، 1380، درآمدى بر شعر شرف الدين انصارى، مجله دانشكده ادبيات وعلوم انسانى، ش160.
- ابن منظور،على بن مكرم، 1119م، لسان العرب، القاهرة: دار المعارف.
- الانصاري، الصاحب شرف الدين،1968م ديوان، تحقيق موسى باشا، دمشق: مجمع اللغة العربية.
- حاجي خليفة، 1999م، كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون، بيروت: دار الفكر.
- الحموي، ابن حجة، دون تاريخ، خزانة الادب وغاية الارب، بيروت: دار القاموس الحديث.
- الحموى، ياقوت،1995م، معجم البلدان، بيروت، دار صادر.
- ضيف، شوقي، دون تاريخ، عصر الدول والامارات/الشام، ج6، الطبعة الثانية، القاهرة، دار المعارف.
- عبد الهادى، محمد حسن، 2008، المختار من الزام الضروب بالتزام المندوب، عمان: دار الينابيع.
- عفيفي، أحمد، 1999م، نحو النص، القاهرة: مكتبة زهراء الشرق.
- الفاخوري، حنا، 1377هـ.ش، تاريخ الادب العربي، الطبعة الخامسة، طهران، توس.
- فروخ، عمر، 1997م، تاريخ الادب العربى، الطبعة السادسة، بيروت: دار العلم للملايين.
- الفقي، صبحي ابراهيم،2006م، علم اللغة النصي.
- فيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب،1999م، القاموس المحيط، ضبط وتوثيق: يوسف الشيخ محمد البقاعي، بيروت: دار الفكر.
- الكتبى، ابن شاكر، 2000م، فوات الوفيات، الطبعة الأولى، بيروت: دار الكتب العلمية.
- المصري، أبن الاصبع، 1963م، تحرير التحبير في صناعة الشعر والنص وبيان إعجاز القرآن، القاهرة.
- موسى باشا، عمر،1999م، تاريخ الادب العربي/العصر المملوكي، دمشق: دار الفكر.